



جيلي عبد الرحمن المنفي في المدن الصفراء

يمثل السودان دائماً امتداداً لمصر.. حباً.. وشمساً.. ونيلاً.. وعطاء.. أما شعراؤه فيحملون مصر في قلوبهم عشقاً خاصاً يتوارثه أجيال المبدعين جيلاً بعد جيل.

ووقفنا الآن مع أحد الشعراء البارزين في الساحة السودانية.. وإن كان قضى عمره منفياً في شرق العالم وغربه.

وقفنا مع الشاعر جيلي عبد الرحمن الذي ولد في قرية (صاي) بشمال السودان.. عام 1931 وتلقى تعليمه في الكتاب.. لكن أباه هاجر إلى القاهرة مطروداً من الإنجليز عام 1934.

والتحق جيلي بالأزهر عام 1947 وكان أبوه يعمل في قصر الملك فاروق بأنشاص - شرقية.

وتفتحت مواهب جيلي في سن مبكرة وصار يحضر صالون (سلامة موسى) وندوة (الجرنوسي) وغيرهما.

وبرز جيلي مع رفاقه السودانيين: تاج السر الحسن - ومحمد الفيتوري - ومحي الدين فارس - وحسن عباس صبحي.. وأطلق عليهم د. محمد النويهي (شعراء المهجر الجديد).

انتسب إلى الحركة الشيوعية وسجن.. وطرده إلى السودان وأفرج عنه عام 1953.

والتحق بالصحافة في جريدة الشعب.. ثم المساء.. واضطر إلى الهروب إلى موسكو عام 1962 ليعود مرة أخرى إلى مصر في يوليو 1975 لكن السلطات المصرية أعادته على الباخرة نفسها إلى موسكو..

حصل على الماجستير والدكتوراه من معهد الاستشراق في موسكو ثم عمل أستاذا في المعهد.

في عام 1977 عمل أستاذا بجامعة اليمن حتى عام 1983 ثم ذهب إلى الجزائر.. وتوفي في القاهرة عام 1990.

له ديوان: الجواد والسيف المكسور - وديوان: بوابات المدن الصفراء.. وكان يتنقل بين بلاد العرب والعالم باحثا عن مكان يستقر فيه بلا جدوى فمن القاهرة إلى موسكو إلى عدن إلى الجزائر إلى بغداد إلى الخرطوم.. لكنه في كل منفي كان يحلم دائما بوطنه أو على حد قوله:

إنا افتديناك

انتظرناك الليالي والحقب

دميت خطانا في المنافي الموحشات

من السَّغْب

حتى تظل لواءنا الخفاق يا شيخ العرب

ويصيح بقارته السوداء أفريقيا.. حتى تنتبه إليه وإلى أبنائها المقهورين في كل مكان:

أفريقيا يا أفريقيا

إن كان الصدر الداوي يشخب عرقاً مسودا



يسقى ذهباً مطموراً في أوغندا

يشكو الظلماء إلى الأنجم

يبغى نورا.. صيدا

واختال الإنسان على المريخ

أشعل تبغا في الصاروخ

ألقى في الصحراء جحيماً

أفريقيا ما زالت في الأعماق صباية شعر

لقد أعطت الغربية لجيلي عبد الرحمن فرصة تأمل للحياة.. والكون
والبشر لكنها حرمته من الاستقرار النفسي والذهني.. مما صبغ شعره
بالحزن والكآبة لافتقاده الفرح والبهجة..

يقول في قصيدته (أحزان الغربية):

حتى قاع الغربية

حتى أسمال الحزن الجدبة

منكفئاً فوق جدار الوحدة يفري قلبه

إنسان يقضى هذه الليلة نحبه

مركب أحبابي تاهت.. أين؟

عامان.. وما زال البين

السفح الساجي تشجيه

الأغنية العذبة

وطنى يا حائط مبكانا
أشلاء الشمس المنتحبه
وزغاب النجم نسيناها
والليل المصفور الرهبه
الحزن جليدى الوجه.. خريفى الغربه
والشوق يشد خطانا للشط
أيا رحمته الرحبة
يفرى قلبه
أنهار الثلج.. حدائقه
لا تطفى جده..

هذا هو إحساسه العميق بالغربة والنفي عن وطنه.. وهو إحساس
محمض حزين يجعل الإنسان متوقعا للموت فى كل لحظة.. وهو هنا صار له
عامان بعيدا عن وطنه.. فهاجت الذكريات فى وجدانه وتجمد الحزن فى
وجهه.. وصار منكفئا على ذاته راضيا بقدره.

ولأنه لاقى ألوان التعذيب والتشريد.. نجده يصف لنا بعضا من هذه
الألوان فى قوله:

جاء الخصيان بليل



كالموس كاب

وتجدلت شهيدا بين الأرز

وبين الأنجاب

هل يذبح نصل من صدف

أوردة الشاعر

والإهام يشع بعينه

رؤى وقياثر..

وتدثرت الجدران المطرقة بجلد الأفعى

والحائرة البائدة

تصيح كريف أفعى

لم يجر الطيف الضامر نطقه

الكلم الكاذب قد أدمى حلقه

ويحس الشاعر بأن أوراق عمره تتساقط ورقة ورقة.. وأنه وجيله قد

لقيا العناء والحياة القاسية.. وشابت رؤوسهم.. واقتربوا جميعا من الموت..

فيهمس في حزن في قصيدته (المرفأ والتابوت):

تساقطت كالتوت أيامنا

وخلفت وراءها البيوت

يا أيها الجيل الذي ما عانقت رؤاه



تكلم الوجوه

الدمع لا يزال فى كهوف العنكبوت

والشيب فى الرؤوس

والزمان كالمشده

كيف انحنت بالله تلك القامة

وأين يا أبى الشباب والوسامة

هذا طاقم أسنانى

أخفيته عن وجهى الحانى

فلتنظرى فى اللثة السفلى

شيئا كمثل الدوده الحبلى

شيئا يثير القىء فى الثانى!

وقد خرج جيلي عبد الرحمن من تجربة حياته بفلسفة خاصة تؤكد لا

جدوى الحياة وتؤكد ضياع الإنسان فى زحمة المدن التى طاف بها ونفي بها..

فجاءت تأملاته حزينة حائرة:

وحائرون - مثلما رأيت - فى المدينة

وضائعون كالقوافل المسكينة



أيامنا في زحمة الحياة لا أبعاد
سوى نحيب القلب في السهاد
وريشة تصر فوق كومة الورق
تبتل بالدخان والعرق
حياتنا.. يا ذلة الحياة
في الرصيف..
على جبين شيخ يرعش اليدا
عروقا تستصرخ الرغيف
والشارع المنهوك نهر
يبلغ الصدى

وهكذا تنتهي حياة جيلي عبد الرحمن بؤساً وحيرة وألماً ويسجل كلماته
من ذوب قلبه المملوء بالحزن والأسى والإحساس بالغربة والنفي.